



تعتبر ظاهرة العبودية الطوعية من مشاغل الفلسفة السياسية وعلم النفس والسوسيولوجيا واللسانيات الاجتماعية، من حيث رصد لغة العبد الطائع باختياره وكذا تمثالته الذهنية والنفسية ونسقه الإدراكي والسلوكي. والعبودية الطوعية، هي اختيار الإنسان من تلقاء ذاته أن يكون عبداً للطاغية/القائد، مستمتعاً بطاعته، سواء كان في الحكم، أو في الحزب والتنظيم، أو في أي مجال من مجالات الحياة التي تمارس فيها سلطة ما.

وقد تناول هذا المفهوم بالدراسة فلاسفة ومفكرون من مختلف المشارب والاتجاهات الفكرية والسياسية. وبرز في دراسة الموضوع الفيلسوف الفرنسي الشاب (إتيان دو لا بويسبي) *Etienne de la Boethie* في كتابه (مقال في العبودية الطوعية)، وهو كتاب أسس لفكرة الحرية كمنطلق مركزي، في الفكر السياسي الغربي الحديث، مما اطلق منه الفيلسوف الألماني إيمانويل كانت في مقالته الشهيرة (ما هي الأنوار؟).

فالطاغية، في نظر "لا بويسبي"، لا يحقق انتصاراً على الجمهور بالقوة، وإنما عبر اتخاذ القرار بمحض إرادتهم؛ إذ هم من يتطوع لخدمته، من خلال قدرته على سلب أبابهم، وملء خيالهم، حتى يتماهون معه، متورمين أنهم يشاركونه سلطانه.

لذلك، طرح "دي لا بويسبي" إشكالاً فلسفياً وفكرياً وسياسياً عميقاً عندما قال: "كل ما أرغب فيه الآن هو أن تفهموني كيف يمكن لهذه الكثرة من الناس والمدن والأوطان أن تحمل أحياناً كل شيء من طاغية واحد، وهو لا يملك من القوة إلا ما يعطي، ولا من سلطان لإضرار بهم إلا قدر ما يريدون الصبر عليه، وما كان يستطيع أن يلحق بهم أي أذى لو لا أنهم يؤثرون احتمال كل شيء منه على أن يعارضوه في أي شيء؟"

إنه لأمر عجيب [...] أن نرى آلافاً مؤلفة من الناس يستعبدون سوء استعباد، رازحين تحت النير، لا لأنهم قهروا بقوة عظمى، ولكنهم لأنهم افتتنوا أو قل سحرها بالاسم وحده لواحد كان ينبغي أن لا يخشوه، ما دام وحده، ولا أن يحبوه ما دام فظاً غليظ القلب على الجميع، فنجد هم يهبون لخدمته والدفاع عنه، بل والتماهي معه، حتى إنهم يتورمون، وهم في أوج استسخاره لهم،

يشعرون بمشاركةه أفكاره وسلطته عليهم، لذلك يتشددون في التزام طاعته التي ورثوها ويرثوها لمن حولهم، بما يغذي الخيال الجماعي عبر التاريخ للطائرين والمربيين.

وإذا كان "دي لا بويسبي" يرى أن حقيقة التعبد الطوعي هي أنه تسيد خفي ناتج عن افتتان بالطاغية، فإن الفيلسوف طه عبد الرحمن يستدرك عليه بأن الافتتان لا يتأتى تلقائياً من التعبد الطوعي، كما يأتي منه تعبده، بل تحمله على ذلك أفعال الطاغية وكذا تصرفاته وإمعانه فيه (كتاب روح الدين، ص 99).

لذلك صاغ طه عبد الرحمن دعوى (لابويسبي) في العبودية الطوعية، بصيغة أخرى هي: "إن المتعبد الطوعي متعبد في الظاهر متسيد في الباطن، أطغاه المتسيد في الظاهر".

ومعنى ذلك أن الأصل في التعبد الطوعي هو إطغاء الطاغية، أي نقل التعبد إليه دون سواه، بما يعني نقل التعبد من مجاله الروحي الأصلي الذي هو عالم الغيب إلى المجال الذي هو عالم الشهادة ونقله من متعلقه الأصلي، وهو الله إلى متعلق نفسي وهو الطاغوت أو الطاغية.

فإطغاء الطاغية يورث المتعبد الطمع في التسييد؛ الطمع بما هو اشتقاء نفسي منحط، يسعى من خلاله المرید/ أو المتعبد الطوعي إلى تحصيل خلق ذميم في طلب ما هو أذم، بل طلب ما بلغ نهاية الذم، بما أن الإطغاء يبقى المتعبد الطوعي مستعبداً على أسوأ وجه ممكن، يزداد عبودية على عبودية.

ويختفي الطاغية تسيده على المتعبد الطوعي تحت اسم (احترام القانون)، مبرراً دحره للفطرة الروحية، من أجل (النسبة النفسية)، بما يتخالها من آفات أخلاقية مثل: "حب الظهور"، "حب الشهرة"، "حب الجاه"، "حب الثناء"، "والنفاق"، "والكذب"، "والحسد"، "والحدق" والوقاحة، " والإغواء"، منفصلاً عن كل الأصول الأخلاقية، مبرراً ذلك بالواقعية السياسية، كما رسخها نيقولا ميكافيل في كتابه (الأمير).

لذلك، أصبح العمل السياسي في معادلة الطاغية/الزعيم و الطاغية/المرید مجالاً للتصرفات المعلومة، قائماً على التسلط، تسلط الطاغية على المرید، وتسلط المرید على الناس الآخرين (كما شرح ذلك عبد الرحمن الكواكبی في كتابه طبائع الاستبداد).

وعليه، تتحدد وظائف المرید السياسي، وفق هذا التصور، في ترسیخ شهرة الطاغية/الزعيم، ونشر صيته في كل البلاد، وتحديث الناس عن فضائله في كل مكان، والتصدی لكل من يمس الطاغية، أو يشير إليه بنقد.

فترى المرید يتسلل لذلك بكل الوسائل العامة (الإعلام) أو الخاصة، عبر التدوينات/اللواشيات وال العلاقات التنظيمية، القائمة على الصحبة والولاء والمصلحة والرفقة السیکولوجیة، فيدوس المرید، كما داس الطاغية/الزعيم، كل الأخلاق التي تورثها الفطرة من تجرد من الأغراض وصدق في الأقوال، ولا يهتم المرید إلا بما يزكي الطاغية ويحسن هيبة، ويحرز له أكبر عدد من الأصوات، ويدحر كل منتقديه ويهينهم أمام الملأ.

لذلك، تصبح اللغة العنيفة والوقاحة، بالتعرض للأشخاص ولأعراض من يكشف هذه المعادلة النفسية الاجتماعية بين الطاغية/الزعيم وبين المرید/المؤمن الصادق بطاغيته، دفاعاً شرعياً عند المرید، ويصبح التصارع والتنازع والاتهام، قواعد متتبعة "لحرار الأصوات والانتصار على الخصوم" مع علم الطاغية والمرید جمیعاً، أنه لا يستطيع الوفاء بنذره على الوجه الذي ينبغي، على افتراض أن الطاغية نذر نفسه لخدمةصالح العام والدفاع عن القضايا العادلة والمشرورة.

فالنسبة النفسية تتغشى الطاغية ويزكي هذا التغشى المريد، بإسناده كل الأمور له (أي للطاغية) متلذاً بنسبة كل الأفعال له، وكل مكتسبات التاريخ له.

كما تؤسس علاقة (الطاغية والمريد) لظاهرة سياسية وأخلاقية ودينية مرضية هي "التملق"؛ تملق الطاغية من المريد، وتملق الطاغية للمواطن، وتملق المربيين بعضهم بعضاً، بكل ما يعنيه التملق من سلوك نفسي وضعيف، يظهر المتملق له/ الطاغية بمظهر المغرور المفتون بالثناء عليه، تملق يبحث له المربيون على شرعية في (التقارب)، ويعلاونه بخدمة المواطن، وحماية القيادة، أو بالأحرى عبادة القيادة.

هذا ما حول الفعل السياسي إلى مجال لتصارع الأهواء والشهوات والقوى والمصالح، فتحولت كل القيم والمبادئ الإنسانية العليا التي يدعى الطاغية/ القائد أنه يدافع عنها، بفعل سلوك المريد ونفاقه، إلى نقاضها؛ أي: "الطمع في السلطة" و"ابتغاء المصلحة الخاصة" و"شهوة الغرور" و"حب الذات" وبناء نسق من الوصوصية والانتهازية معقد ومقنع، يظهر ويختفي، لكنه حاضر باستمرار.

ويذهب طه عبد الرحمن إلى أن عادة الفاعل السياسي أن يسعى إلى الظهور بأضدادها، بدءاً وتذكيراً، دفعاً لكل الشبهات المحتملة، فيدعي في العلانية أن يواعثه على هذه الخدمة تعلو ولا يعلى عليها ما دام قدره هو مصارعة ألد المنافسين؛ لأن تكون هذه البواعث في (إقامة العدل) و(جهاد الظلم) (وإشاعة الحرية) (ومحو العبوبية) و(تحقيق التنمية)...؛ كل ذلك لكي يضفي الصبغة الشرعية والشعبية على اختيارات وتصرفات تبعث عليها في الحقيقة، دوافع مشبوهة، ولو أنها تبدو خادمة للشأن العام (روح الدين، ص 104).

فالفاعل السياسي، أي: الطاغية/ القائد، وفق هذه الرؤية، يملك القدرة النفسية على الإزدواج السياسي بناء على قاعدة (لا حرج في ارتكاب المخالفات ما لم يكن لأحد سبيل إلى اكتشافها)؛ فتحتل الممارسة السياسية، وفق هذا المنظور الطهائى إلى مجرد (تدبير للسلم) في العلانية، و(تحضير حرب) في السر؛ أو كما قال كلوزييفتش carl von Clausewitz : الحرب هي مواصلة السياسة بطرق أخرى، فتكون السياسة هي إدارة النزاع، وما النزاع إلا حرب بالكلام.

إن المريد أو المتعبد الطوعي، هو الأداة الأساسية في ترسیخ تسلیم ينم عن غريزة دفينه في النفس، غريزة الاستتباع والتملق، تمتد ذاكرتها التاريخية إلى الذين استخفهم حاكمهم فأطاعوه، وأصبح يریهم ما يرى، وهم يطغون على الناس ويقهرونهم بأفكار زعيمهم ورؤيته، ويكرهونهم عليها، مما تنكره الفطرة ويستنكره العقل.

وعليه، سبق العنف في السياسة وفي الفكر، باللغة وبالسلاح، ما دام بيننا مریدون يعبدون قادتهم بطوعية ويخدمون في بؤس (بتعبير لابويسىي، ص 12)، وبمحض اختيارهم.

العصر

المصادر: